سُورَةُ الفَتْحِ

النزول: مدنية.

فضل السورة:

عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن رسول الله ﷺ كان يسير في بعض أسفاره، وعمر بن الخطاب يسير معه ليلاً، فسأله عمر بن الخطاب عن شيء، فلم يُجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمَّ سأله فلم يُجبه: فقال عمر بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر، نزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاث مراتٍ، كل ذلك لا يجيبك. قال عمر: فحَرَّكْتُ بعيري، ثمَّ تقدَّمت أمام الناس، وخَشِيتُ أن ينزل فيَّ القرآن، فما نَشِبْتُ أن سمعت صارخاً يصرخ بي. فقلت: لقد خشيت أن يكون نزل فيَّ قرآن، فجِئْتُ رسولَ الله ﷺ فسَلَّمْتُ عليه، فقال: «**لقد أُنزلت عليَّ الليلة سورةٌ، لهيَ أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس. ثم قرأ:** ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾».

(وما نَشِبَ: ما لَبِثَ). (صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الفتح، باب (الآية) ٨/٤٤٦، برقم ٤٨٣٣).

المقاصد:

١ ـ البشارة الكبرى بهذا الفتح المبين والنصر العزيز صلح الحديبية، وما أعقبه من فتح مكة، وفتح خيبر، وغيرهما من الفتوحات.

٢ ـ تقرير أهمية تربية الأجيال وإعدادها؛ لتنهض بحمل رسالة الإسلام.

٣ ـ بيان فضل الله على نبيه ﷺ، وكريم شمائله.

٤ ـ بيان مناقب الصحابة وفضائلهم، وتضحياتهم وصدقهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ
وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾
لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ
وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ
ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ
وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾

التفسير:

١ ـ ٣ ـ يُبَشِّرُ الله تعالى رسوله ﷺ والمؤمنين بالفتح: إنَّا ـ لما لنا من العظمة والقدرة ـ فتحنا لك ـ أيُّها الرسول ـ فتحاً مُبيناً في ظهور الحق على الباطل في صلح الحديبية، فإنَّه تحقق بسببه مصلحة كبيرة، ثمَّ تحقَّقَتِ البشرى بالفتوحات تترى، وذلك الفتح الذي يحتاج إلى جهود؛ لكي يغفر الله لك ما تَقَدَّم من ذنبك وما تأخَّر. وفيه بشارة أخرى للنبيِّ ﷺ في هذه المغفرة التي خُصَّ بها، وليتمَّ نعمتَه سبحانه عليك بإظهار الدين وانتشاره، ويهديك إلى دين الإسلام، وينصرك الله نصراً أكيداً منيعاً.

عن أنس رضي الله عنه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحديبية. (صحيح البخاري ـ كتاب التفسير ـ سورة الفتح، باب (الآية) ٨/ ٤٤٧ برقم ٤٨٣٤، وأخرجه بنحوه بسنده عن البراء (صحيح البخاري ـ المغازي ـ غزوة الحديبية برقم ٤١٥٠).

٤ ـ ٦ ـ سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحديبية. قال أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. قال شعبة: فقدمتُ الكوفة، فحَدَّثت بهذا كله عن قتادة، ثم رَجَعْتُ فذكرت له، فقال لي: أمَّا ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس، وأما «هنيئاً مريئاً» فعن عكرمة. (صحيح البخاري ـ المغازي، باب غزوة الحديبية برقم ٤١٧٢).

التفسير:

هو الله الذي أنزل الطمأنينة في قلوب الصحابة رضي الله عنهم يوم الحُديبية؛ ليزدادوا تصديقاً مع تصديقهم. ولله جنود السموات السبع، والأرَضين السبع، من الملائكة والجنِّ والبراكين والغرق وغيرها ينصر بها دينه. وكان الله عليماً بأحوال خلقه، حكيماً في تدبير شؤونهم. ودَبَّر هذا التدبيرَ؛ ليُدْخِلَ أهل الإيمان جنات تجري الأنهار من تحت أشجار قصورها، ماكثين فيها أبداً، ويمحو عنهم خطاياهم. وكان ذلك المقام الكريم عند الله فلاحاً عظيماً في جَنَّات النعيم، وليعذِّب الله أهل النفاق وأرباب الشرك المتصفين بسوء الظنِّ بالله تعالى بأنَّه يخذل المؤمنين، ويتركهم غنيمة للكفَّار، فعلى هؤلاء وحدهم تدور دائرة العقاب، وسَخِطَ الله عليهم بكفرهم وأبعدهم عن رحمته، وهيأ لهم نار جهنَّم، وساءت مرجعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ ينظر: خريطة موقع فتح مكة، كما في الملحق.

٢ ـ إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن المستقبل، فقد وصف اللهُ الفتحَ بالمبين، على خلافِ ما رآه كثير من الصحابة لصلح الحديبية بادئ الأمر.

٣ ـ استفتاح السورة بهذه البشارة العظيمة، فقد كان صلح الحديبية فاتحة خير على الدعوة، وتمهيداً لما تَبِعَه من فتح مكة، وفتح خيبر وغيرها.

٤ ـ نيل المغفرة، واستجلابُ النِّعَمِ، وتحصيل الهداية، من أسمى أهداف المسلم في سعيه وجهاده ودعوته.

٥ ـ قال ابن عاشور: «تأكيد الكلام بـ ﴿إِنَّا﴾ لما في حصول ذلك مِنْ تَرَدُّدِ بعض المسلمين أو تساؤلهم، فعن عمر أنَّه لمَّا نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا

مُّبِينًا﴾ قال: «أوفتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: **نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لفتح**». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٢٢) **والأثر صحيح**.

٦ ـ ذِكْرُ المؤمنات مع المؤمنين هنا لدَفْعِ تَوَهُّمِ أن يكون الوعدُ بهذا الإدخالِ مختصّاً بالرجال.

٧ ـ الإيمان يزيد بالطاعات والأعمال الصالحات.

٨ ـ المقابلة بين نِعَمِ الله وإكرامه لعباده المؤمنين، وبين نِقَمِه وسخطه وعذابه للكفار والمنافقين. وهذا من تمام البشارة، وكمال البهجة لأهل الإيمان.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ
وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم
مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ
أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

التفسير:

٧ ـ ولله تعالى جنود السموات السبع والأرَضين السبع، ينصر بها دينه ويسحق بها أعداءه. وكان الله عزيزاً في انتقامه، حكيماً في تدبيره.

٨ ـ ٩ ـ إنَّا ـ لِما لنا من العظمة والقدرة ـ أرسلناك ـ أيُّها الرسول ـ شاهداً على الخلق بالتبليغ، فلا يعذر المخالفون عن شريعتك، ومُبَشِّراً المؤمنين بجنَّات النعيم، ومُخوِّفاً الفاسقين من نار الجحيم؛ لكي تُصَدِّقوا ـ أيُّها العباد ـ

بالله، وتُقِرُّوا له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة، وتُجِلُّوا وتُعَظِّموا الرسول ﷺ، وتُسَبِّحوا الله في الصباح والمساء.

١٠ ـ إنَّ الذين يُبايعونك ـ أيُّها الرسول ـ على السمع والطاعة يوم الحديبية إنَّما يُبايعون الله تعالى، ويعقدون الصفقة الرابحة معه؛ ابتغاء رضوانه. يد الله فوق أيديهم، فهو يعلم ذلك العهد، فمَنْ نَقَضَه فإنَّما يعود عقاب نَقْضِه عليه، ومَنْ وَفَّى هذه البيعة العظيمة بطاعة رسوله ﷺ، فسيكرمه الله تعالى بجنَّة كريمة.

١١ ـ يُحَذِّر الله تعالى نبيَّه ﷺ مكر المنافقين الذين تَخَلَّفوا عن الخروج معه يوم الحديبية، بقولهم: شُغِلْنا عن الخروج معك بالأموال والعيال، فاطلب لنا من الله المغفرة. يقولون خلاف ما يُبْطِنون من الكذب، قل لهم أيّها الرسول: مَنْ يمنعكم من قضاء الله إنْ قَدَّر عليكم شرّاً أو خيراً؟ ليس الأمر كما زعمتم، بل الله مُطَّلِعٌ على فضائحكم وقبائحكم.

١٢ ـ يفضح الله ما أخفاه المنافقون: بل حَسِبْتُم أنَّ الرسول وأصحابه لن يرجعوا إلى ديارهم في المدينة أحياء، وزَيَّن الشيطان ذلك الظنَّ الخبيث في نفوسكم، وظننتم بالله سوء الظنِّ أنَّه لن يَنْصُرَ رسوله، وكنتم قوماً هلكى؛ بسبب هذا الظنِّ السيِّئ.

١٣ ـ ومَنْ لم يؤمن بالله ورسوله إيماناً صادقاً بالقول والطاعة، فإنَّنا أعتدنا للمكذِّبين بالله ورسوله من المنافقين وغيرهم عذاب السعير في نار جهنَّم.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قال الرازي في الآية (٧): «كَرَّرَ اللفظ لأنَّ جنود الله قد يكون إنزالهم للرحمة، وقد يكون للعذاب، فذكرهم أولاً لبيان الرحمة بالمؤمنين، وثانياً لبيان إنزال العذاب على الكافرين». (التفسير الكبير: ٢٨/ ٦٥).

٢ ـ تثبيت قلب النبيِّ ﷺ والمؤمنين بذكر جنوده في السموات والأرض؛ لنصرة أوليائه.

٣ ـ بيان مهمة الرسول والمرسَل إليهم.

٤ ـ تنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله.

٥ ـ وجوب الوفاء بالعهد وحرمة نكثه.

٦ ـ إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الغيب المستقبلي، وتحققه كما أخبر.

٧ ـ بيان ظاهرة النفاق، وكشف خبايا المنافقين.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ
يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ
تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى
بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن
قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ
وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

التفسير:

١٤ ـ ولله تعالى ملكوت السموات السبع والأرَضين السبع، يغفر برحمته لِـمَنْ يشاء من عباده المؤمنين التائبين، ويعذِّب بعدله مَنْ يشاء من الكافرين والمنافقين. وكان الله غفوراً لِـمَنْ تاب من عباده، رحيماً بهم.

١٥ ـ يكشف الله تعالى أمراً غيبياً من خداع المنافقين وطَمَعِهم بالغنائم، سيقول هؤلاء الذين تَخَلَّفوا يوم أُحُد والحديبية للنبيِّ ﷺ وأصحابه: إذا انطلقتم إلى غنائم خيبر التي وعدكم الله بها: دَعُونا نخرج معكم. يريدون بذلك أن يغيِّروا وَعْدَ الله لأهل الحديبية أن تكون لهم غنائم أيضاً. قل لهم أيُّها الرسول: لن تخرجوا معنا إلى خيبر، بمثل ذلك الأمر العظيم أَمَرَنا الله. فرَدَّ المنافقون: ليس الله أَمَرَكم، بل أنتم تقولون ذلك حسداً منكم؛ لئلَّا نشارككم في الغنائم. وليس الأمر كما ظَنُّوا، بل كانوا لا يفهمون اتِّباع الحقِّ إلا نادراً.

١٦ ـ ١٧ ـ قل ـ أيُّها الرسول ـ للمتخَلِّفين عن القتال من أهل البادية: ستُدْعَوْن إلى قتال قوم أصحاب قوَّة ضاربة، وعزيمة صارمة في ميدان القتال. شرع لكم جهادهم ولكم النصر عليهم، أو يدخلون دين الإسلام من غير قتالهم، فإن تستجيبوا وتنفروا إلى الجهاد يرزقكم الله الغنيمة أو الجنَّة، أو هما معاً، وإن تتخَلَّفوا كما تَخَلَّفتم في يوم أُحُد والحديبية يُعَذِّبْكم الله عذاباً موجعاً. ويُستثنى أصحاب الأعذار: الأعمى والأعرج والمريض، فليس عليهم إثم. ومَنْ يطع أمر الله ورسوله، يدخله الله تعالى بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار العذبة، ومَنْ يتخلَّفْ عن الجهاد في سبيل الله مع المؤمنين، يُعَذِّبه الله عذاباً مُوجعاً.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ الفقه في الدين من أسباب العصمة والنجاة والإنصاف.

٢ ـ إعجاز القرآن الكريم في إخباره عن الأمور المستقبلية.

٣ ـ فتح باب التوبة والقبول أمام المخلفين، وتلك رحمة الله تعالى، يفتح باب التوبة من كل ذنب مهما عظُم.

٤ ـ في قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ الآية (١٦) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٥ ـ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الآية (١٧) وقف نبوي، وينظر: تفسير سورة النساء الآية (١٧٣)، وسورة الأنعام الآية (٦٥).

٦ ـ رفع الحرج عن أصحاب الأعذار والمرضى، وهذا من رحمته تعالى وتيسيره لعباده مع فتح ميادين الطاعة التي ينافسون فيها المعافين.

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

التفسير:

١٨ ـ ١٩ ـ قسماً لقد رضي الله عن المؤمنين، حين بايعوك تحت الشجرة بأرض الحديبية، فعَلِمَ الله ما في قلوبهم من السمع والطاعة، فأنزل السكينة عليهم، وجازاهم على هذه البيعة بفتح خيبر ـ تقع شمال المدينة مسافة (١٦٠) كيلاً ـ وما بعدها، ومغانم كثيرة يأخذونها من أموال يهود خيبر وغيرهم. وكان الله عزيزاً في انتقامه من أعدائه، حكيماً في تدبير شؤون خلقه.

٢٠ ـ يُبَشِّرُ الله تعالى المؤمنين بوعده الكريم في كسب الغنائم الكثيرة من العدوِّ على جهادهم وصبرهم، فعَجَّل للصحابة رضي الله عنهم غنائم خيبر، فمنع أن تمتدَّ أيدي الأعداء إليهم بسوء، فأخذتم الغنائم بدون جهد وقتال، ولتكون هذه الغنائم دلالة واضحة على قدرة الله تعالى في نصرة المؤمنين، ويرشدهم إلى الطريق الصحيح الموصل إلى الجنة.

٢١ ـ وعدكم الله سبحانه ـ أيُّها المؤمنون ـ مغانم أخرى لم تقدروا على أَخْذِها، عند نزول هذه الآية. عَلِمَ الله أنَّها ستكون لكم بإذنه. وكان الله على كل شيء قديراً لا يعجزه شيء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفتوح التي تفتح إلى اليوم. (أخرجه أبو داود الطيالسي، وسنده رجاله ثقات إلا سماكاً الحنفي لا بأس به، فالإسناد حسن، ينظر: تفسير ابن كثير ٤/ ١٩١ ـ ١٩٢، وأخرجه البيهقي بلفظ: هو ما أصبتم بعده (دلائل النبوة: ٤/ ١٦٣).

٢٢ ـ ٢٣ ـ يُبَيِّنُ الله تعالى رعايته للنبيِّ ﷺ والمؤمنين: ولو قاتلكم كفَّار مكة لانهزموا فارِّين، ثمَّ لا يجدون مَنْ يُواليهم، ولا مَنْ يُعِينهم على القتال، سُنَّة الله التي سَنَّها في الأُمم السابقة أن ينصر عباده المؤمنين، ويهزم أعداءَه الكافرين، فلن تتغيَّر هذه السُنَّة في العالمين.

٢٤ ـ سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ من جبل التنعيم، مُتَسَلِّحين يُريدون غِرَّة النبي ﷺ وأصحابه فأخذهم سِلْماً، فاستحياهم. فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

(صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب (الآية) ٣/ ١٤٤٢ برقم ١٨٠٨).

التفسير:

والله تعالى هو الذي كَفَّ عنكم أيدي المشركين الذين حاولوا البطش بكم، وكَفَّ أيديكم بالعفو عنهم في الحديبية، بعد ما قدرتم عليهم. وكان الله بكلِّ ما تعملون بصيراً، لا يخفى عليه شيء.

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قد دُعِيَتْ هذه البيعة بيعة الرضوان من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

٢ ـ رضا الله جلَّ وعلا خير ما يُؤَمِّلُه العبد، وأعظم ما ينالُه، فهو غايتُه، ومنتهى أمله.

٣ ـ الالتفات من الغيبة للخطاب ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ للعناية بالمؤمنين، والإقبال عليهم بعد الحديث عنهم بالثناء.

٤ ـ فضائل صحابة رسول الله ﷺ، وكريم شمائلهم، من ذلك بيعة الرضوان التي تَدُلُّ على صدقهم وثباتهم وطاعتهم، ونُصْرَتِهم لنبيهم ﷺ.

٥ ـ سُنَّة الله تعالى في نصر عباده المؤمنين على الكفار.

٦ ـ سلامة الأبدان، وحِفْظ النفوس، من مقاصد الإسلام، ومن لُطْفِ الله بعباده المؤمنين.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ
مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ
فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا
﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ
مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا
قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ
شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ
وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ
لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

التفسير:

٢٥ ـ كُفَّار مكة هم الذين كذَّبوا بالله، ومنعوكم من الطواف بالمسجد الحرام، ومنعوا الهَدْيَ من الأنعام عن بلوغ مَنْحَرِه في الحرم. ولولا طائفة من المؤمنين والمؤمنات يعيشون مع كفَّار مكّة، يكتمون إيمانهم خوفاً من بطش الكفَّار لم تعرفوهم؛ خشيةَ أن تقتلوهم مع الكفَّار، فيقع عليكم إثم بغير علم، لَأَمَرْناكم بقتالهم؛ ليُدْخل الله في رحمته مَنْ يشاء، فينَجِّي المؤمنين، ويرجع كثير من الكفَّار إلى الإسلام، لو تميَّز أهل الإيمان عن الكفَّار، وخرجوا من بينهم، لَعَذَّبْنا الكفَّار أشدَّ العذاب بالقتل والأسر.

٢٦ ـ سبب النزول:

عن المسور بن مخرمة ومروان ـ يُصَدِّقُ كل واحد منهما حديث صاحبه ـ قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق...

فذكر الحديث بطوله وفي آخره: فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لَمَّا أَرْسَلَ، فمَنْ أتاه فهو آمن فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وكانت حميتهم أنَّهم لم يقروا أنَّه نبي الله، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

(صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ٥/ ٣٢٧ ـ ٣٣٣ برقم ٢٧٣١ ـ ٢٧٣٢).

التفسير:

حين جعل الكفَّار في قلوبهم الكِبْرَ والبَطَرَ وهي عصبية الجاهلية، جعل الله تعالى الطمأنينة والصبر على رسوله ﷺ وصحابته رضي الله عنهم، وألزمهم قول: (لا إله إلا الله) والقيام بها، وكان المؤمنون أحقَّ بهذه الكلمة العظيمة من المشركين، فهم أهل لها. وكان الله بكلِّ شيء عليماً، لا يخفى عليه شيء في السموات السبع والأرَضين السبع.

٢٧ ـ قسماً لقد جعل الله رؤيا رسوله ﷺ صادقة مُحقَّقة، وهي دخوله ﷺ وأصحابه بيت الله الحرام آمنين من العدوِّ، مُحَلِّقين شعر رؤوسكم، ومُقَصِّرين بعد طواف العمرة وسَعْيِها، فعَلِمَ اللهُ من المصلحة في تأخير هذه العمرة ما لم تعلموا أنتم، فجعل من دونِ دخولِكم مكَّة الذي وُعِدْتم به فتحاً قريباً، وهو صُلْحُ الحديبية، ثمَّ فتح خيبر.

٢٨ ـ الله تعالى بمَنِّه وكرمه أرسل رسوله محمَّداً ﷺ بالهداية إلى الخير ودين الإسلام؛ ليُعْلِيَه على الأديان كلِّها. وكفى بالله شاهداً على صِحَّةِ رسالتك، وأنَّه ناصرك.

٢٩ ـ لما بَيَّن صدق الرسول ﷺ في رؤياه، واطمأنت نفوس المؤمنين، أعقب ذلك بتنويه شأن الرسول ﷺ، والثناء على المؤمنين الذين معه. فيمدح الله سبحانه نبيَّه ﷺ والصحابة رضي الله عنهم: محمَّد رسول الله ﷺ والذين معه من أصحابه غِلاظٌ على مَنْ يعاديهم من الكفَّار، متراحمون فيما بينهم، تراهم راكعين ساجدين، يطلبون من الله تعالى وحده رحمته ورضوانه، علامة طاعتهم ظاهرة في وجوههم من أثر السجود والعبادة. ذلك الوصف الكريم

ورد في كتاب التوراة والإنجيل، وصِفَتُهم في هذين الكتابين مثل زرع أخرج فروعه، فقَوِيَ حتى صار غليظاً، فقام الزرع واستقام على أصوله، يُعْجِبُ الزارع من جمال منظره، ليغيظ الكفَّار بهؤلاء المؤمنين في كثرتهم وتَوادِّهم وشدَّة بأسهم على أعداء الله تعالى، وعد الله المؤمنين الذين عملوا بطاعته المغفرة لذنوبهم، والرزق العظيم في جَنَّة النعيم.

قال ابن عاشور: «ثمَّ تكون أحكام الشدَّة على الكفَّار من وجوب وندب وإباحة، وأحكام صحبتهم ومعاملتهم جارية على مختلف الأحوال، ولعلماء الإسلام فيها مقال». (التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٧٢).

الفوائد والاستنباطات:

١ ـ قَوْله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تَفْصِيلٌ لِلصَّحابَةِ، وإِخْبارٌ عَنْ صِفَتِهم الكريمة من العِفَّةِ عَن المعصِيَةِ، والعِصْمَةِ عن التَّعَدِّي، حتى إنهم لو أَصابُوا مِنْ أُولئكَ أَحَداً لَكانَ مِنْ غيرِ قَصْدٍ.

٢ ـ قابَلَ بين حمية الجاهلية وسكينة أهل الإيمان، وأضاف الحمية وهي: الأَنَفَةُ والعصبية إلى الجاهلية تأكيداً لذَمِّها. والعطف بالفاء يفيد المقابلة كما تقول: أكرمني فأكرمته.

٣ ـ رؤيا الأنبياء حق، وقد يتأخر وقوعها.

٤ ـ المستقبل لهذا الدين، والآمال معقودة على دعاته وحملة لوائه، فلم يَعُدْ للبشرية من سبيل سواه بعد أن تبدَّدت كل الفلسفات، وتحطمت كل التصورات، وفشلت القوانين الوضعية في إصلاح طريق البشر.

٥ ـ استدل الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ بهذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ على تكفير الذين يُبْغِضُون الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، قال: لأنَّهم يُغيظونهم، ومَنْ غاظ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فهو كافر لهذه الآية. قال ابن كثير: «ووافقه طائفة من العلماء على ذلك». (التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: ٢٦/ ٢٢٧).

٦ ـ يُعَلِّمنا القرآن الكريم ذِكْرَ المشيئة، فالله تعالى يفعل ما يشاء.

٧ ـ رَبْطُ المسجد الحرام بالأمن؛ لأنه من أَخَصِّ صفاته، فهو حرمٌ آمنٌ.